

## ( ١٤ ) خطبة له ﷺ

### فى تذكر الموت

خطب النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فحمد الله وأثنى عليه ،  
ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ .. أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ ، فَإِنَّكُمْ إِذَا ذَكَرْتُمُوهُ  
فِي ضَيْقٍ وَسَعَةٍ عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ ذَكَرْتُمُوهُ فِي غِنَى بَعْضُهُ لِيَكْمَ . إِنَّ  
الْمَنَايَا قَاطَعَاتُ الْأَمَالِ وَاللِّيَالِي مُدْنِيَاتُ الْأَجَالِ . وَإِنَّ الْعَبْدَ بَيْنَ  
يَوْمَيْنِ : يَوْمٌ قَدْ مَضَى أُحْصِيَ فِيهِ عَمَلُهُ فَحُتِمَ عَلَيْهِ ، وَيَوْمٌ قَدْ بَقِيَ  
لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ . وَإِنَّ الْعَبْدَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ وَحُلُولِ  
رَمْسِهِ<sup>(١)</sup> يَرَى جِزَاءَ مَا أَسْلَفَ وَقَلَّةَ غِنَاءِ مَا خَلَّفَ<sup>(٢)</sup> .

أَيُّهَا النَّاسُ .. إِنَّ فِي الْقَنَاعَةِ لَغِنَى ، وَإِنَّ فِي الْاِقْتِسَادِ لِبَلِغَةٌ<sup>(٣)</sup> .  
وَإِنَّ فِي الزُّهْدِ لِرَاحَةٌ ، وَلِكُلِّ عَمَلٍ جِزَاءٌ ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ » .

(ذكرها العلامة بهاء الدين محمد العاملى فى الكشكول)

فى هذه الخطبة - كما قرأنا - يخاطب النبى ﷺ المسلمين جميعاً<sup>(٤)</sup>  
مرغباً إياهم فى الإكثار من ذكر هازم اللذات ، وهو الموت : وذلك لأن

(١) الرمس - بنتح فسكون - : التراب ، سمي به القبر .

(٢) الغناء - بفتحيتين - : الاكتفاء ، أى : يرى قلة كفاية ما ترك .

(٣) البلغة : بضم فسكون - : ما يتبلغ به من العيش .

(٤) فى شخص هؤلاء الذين يخاطبهم .

الإكثار من ذكره - كما قال النبي ﷺ - سيجعل الإنسان غير غافل، وسيجعله دائماً وأبداً زاهداً في هذه الحياة الأولى التي أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء:

﴿وَأَنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لِهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

وحسب الإنسان أن يذكر نفسه دائماً وأبداً بهذه الحقيقة، حتى يعتبر نفسه ضعيفاً في هذه الحياة المؤقتة، وحتى يكون كذلك دائماً وأبداً على أتم استعداد للقاء الله تبارك وتعالى، وذلك باغتنام كل لحظة في حياته، حتى إذا ما انتهى أجله وحانت لحظة رحيله كان سعيداً بهذا السفر الطويل إلى الله تبارك وتعالى، وفي الحديث:

« مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ ».

وقد قرأت أن بلال بن رباح رضي الله عنه أثناء وفاته كانت ابنته تبكي بجواره وهي تقول: وأبتاه، واكرباه، واحزنناه. فاتبته وهي تقول هذا، فزجرها ونهرها وهو يقول لها:

« لَا تَقُولِي ذَلِكَ: لَا كَرَبَ عَلَيَّ أُنَيْكَ بَعْدَ الْيَوْمِ، الْيَوْمَ نَلْقَى الْأَحِبَّةَ ، مُحَمَّدًا وَحَزْبَهُ ».

(١) أي: لهدى الحياة الحقيقية - (والآية من سورة العنكبوت: ٦٤).

هذا بالإضافة إلى أن الإنسان عندما سيكثر من ذكر هاذم اللذات لن يكون من هؤلاء الذين يطمعون أو يبخلون، وإنما سيكون من القانعين الباذلين . . وهم في نفس الوقت ينفذون قول الله تعالى :

﴿وَلَا تَسْ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١) .

وذلك لأنهم يعرفون أن الزهد ليس كما يفهم بعض الناس - وهو أنه انقطاع للعبادة وابتعاد عن ميادين العمل للدنيا - وإنما هو كما قال العلماء :

«ليس الزاهد من لا مال عنده ، بل الزاهد من لم يشغل المال قلبه ، وإن أُوتِيَ مثل ما أُوتِيَ قَارُونَ» .

فلندرك جميعاً أبعاد هذا ، ولنكن من الذين عرفوا الله تعالى فعرفهم ، وعرفوا الدنيا فرفضوها ، وعرفوا الآخرة فطلبوها .

فعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي ، فقال :

«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول :

(١) سورة القصص : ٧٧ .

«إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصُّبْحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ ،  
وَحُذِّ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ .»

(رواه البخارى)

قالوا فى شرح هذا الحديث : معناه : لا تركز إلى الدنيا ولا تتخذها  
وطناً ، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ، ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق  
منها إلا بما يتعلق به الغريب فى غير وطنه ، ولا تشتغل بما لا يشتغل به  
الغريب الذى يريد الذهاب إلى أهله . . اهـ (١) .

\*\*\*

---

(١) من كتاب «رياض الصالحين» للنووى .